

الإمام أبو حامد الغزالي



الدرس
10

أهداف الدرس

1. أن أتعرف سيرة الإمام الغزالي.
2. أن أثبت أسباب رحلته العلمية وتجربته الصوفية.
3. أن أتمثل مسلكه في التصوف وعلو الهمة.

تمهيد

في تاريخنا الإسلامي أئمة أعلام عُرفوا بعلمهم وعملهم وعلو همتهم، بلغوا المرتبة العالية بالمجاهدة والمكارم والتحلي بالشمائل، نذروا أوقاتهم لهداية الخلق إلى الحق، وآثروا حياتهم الباقية على الفانية، وآتاهم الله أنوار المعرفة والمشاهدة، ومن هؤلاء العلماء الربانيين صاحب التصانيف والذكاء المفرط الإمام أبو حامد الغزالي.

فمن هو أبو حامد الغزالي؟ وما سبب رحلته العلمية وإقباله على الصوفية؟.

نص الانطلاق

تحدث الإمام الغزالي - رحمه الله - عن بعض أسباب رحلته العلمية والفكرية التي قادته إلى طريق التصوف قائلا: «قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق...، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريبا من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار؛ إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطيبها لقلوب المختلفة إلي، فكان لا

ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة... ، والتجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب... ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعودها أبدا... ، ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال... ، ثم دخلت الشام، وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصدع منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي، ثم تحركت في داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فسرت إلى الحجاز، ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فأثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر، وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة، لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، وعلمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق...» [المنقذ من الضلال، ص 170-174 بتصرف].

الفهم

الشرح:

- **الإنابة:** أخص من التوبة، وهي رجوع يصحبه انكسار ونهوض إلى السير.
- **المجاهدة:** فطم النفس عن المألوفات، وحملها على مخالفة هواها في عموم الأوقات.

استخلاص المضامين:

- تأمل قصة حياة الإمام الغزالي، وأستخلص منها ما يفيدني في مسيرتي العلمية.

أولاً: ترجمة الإمام الغزالي

هو «محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، ولد سنة 450هـ، حجة الإسلام جامع أشتات العلوم والمبرز في المنقول منها والمفهوم...، كان رضي الله عنه ضرغاماً إلا أن الأسود تتضاءل بين يديه وتتوارى، وبدراً تماماً إلا أن هداه يشرق نهاراً، وبشراً من الخلق ولكنه الطود العظيم...، هذا مع ورع طوى عليه ضميره، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره...، ترك الدنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سره وجهه» [طبقات الشافعية الكبرى، 6/191 بتصرف]. صدق من قال عنه «رباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين أوانه» [سير أعلام النبلاء، 19/335].

ثانياً: شيوخه في العلم والتصوف

تذكر كتب التراجم أن الإمام أبا حامد الغزالي «تفقه ببلده أولاً، ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين، وبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام والجدل، حتى صار عين المناظرين» [سير أعلام النبلاء، 19/332]. قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، ثم رجع إلى طوس، قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، وجد واجتهد حتى برع في المذهب، والخلاف، والجدل، والأصلين، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك [طبقات الشافعية الكبرى، 6/195 بتصرف].

من أبرز شيوخه أبو المعالي الإمام الجويني (كان يُظهر اعتزازه بتلميذه وإعجابه به) وفي التصوف استمد معارفه بالنظر في الكتاب والسنة، وتأمله في خلوته، وقراءته كتب القوم وأرباب الطريقة، كما بينه بقوله: «فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لي أن أخص خواصهم بما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات». [المنقذ من الضلال، ص 172].

ثالثاً: رحلته العلمية ومراحله الفكرية

تحدث الإمام الغزالي عن سبب طلبه العلم بقوله «مات أبي وخلف لي ولأخي مقداراً يسيراً ففني بحيث تعذر علينا القوت، فصرنا إلى مدرسة نطلب الفقه، ليس المراد سوى تحصيل القوت،

فكان تعلمنا لذلك ، لا لله ، فأبى أن يكون إلا لله» [سير أعلام النبلاء، 335/19] وكان تَوَاقًا لطلب العلم ، رُزِقَ نَهْمُ المعرفة ، وحب البحث عن الحقيقة ، وصدق إذ قال عن نفسه «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي» [المنقذ من الضلال، ص 110]. وقد أثمرت هذه الهمة رجلاً أحيا الله به أمة؛ حيث قدم بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ودرس بالنظامية، وأعجب الخلق حسنُ كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبوه، وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدة، عظيمُ الجاه، زائدُ الحشمة، عالي الرتبة، مسموعُ الكلمة، مشهورُ الاسم تضرب به الأمثال ، وتشد إليه الرحال إلى أن عزفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفض ما فيها من التقدم والجاه، وترك كل ذلك وراء ظهره، وقصد بيت الله الحرام، فخرج إلى الحج في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واستناب أخاه في التدريس، ودخل دمشق في سنة تسع وثمانين فلبث فيها يُؤمّات يسيرة على قدم الفقر، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به مدة، ثم عاد إلى دمشق واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع وبها كانت إقامته...، وكان الغزالي يكثر الجلوس في زاوية الشيخ نصر المقدسي بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية، خشي الغزالي على نفسه العجب ففارق دمشق وأخذ يجول في البلاد، فدخل منها إلى مصر، وتوجه منها إلى الإسكندرية، فأقام بها مدة، وقيل إنه عزم على المضي إلى السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله فبلغه موته [طبقات الشافعية الكبرى، 6/196 بتصرف]. وإذا كان أرباب التراجم قد تباينت أقوالهم في ترتيب ما زار من الأماكن فإن البلدان التي زارها هي: القدس، ومكة، والمدينة، ومصر، ثم رجع إلى بغداد.

1. المراحل الفكرية: مراحل المعرفة التي مر بها الغزالي يمكن تصنيفها إلى مراحل ثلاث:

– **مرحلة التلقي أو «التقليد»**، في «طوس» و«جرجان» و«نيسابور» واستفاد في هذه المرحلة من إمام الحرمين أبي المعالي الجويني.

– **مرحلة القلق والاضطراب أو «الاستدلال»**، وعدم رضاه عن الحال، وهي مرحلة دفعته إلى مفارقة بغداد، والرحلة إلى ما ذكرنا من البلدان.

– **مرحلة الاطمئنان أو «المشاهدة بنور اليقين (التصوف)»** وهي التي رجع فيها إلى «نيسابور» ليكون أستاذاً، ثم إلى «طوس» من جديد، حيث كان يقضي جل أوقاته في عبادة الله، وفي تعليم الناس وتربيتهم وإفادتهم.

رابعاً: تصوف الإمام الغزالي

إن تصوف الإمام الغزالي أسهمت فيه عوامل عدة، منها ما كان ثمرة تأمل ورغبة، كما بين ذلك بقوله «ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والانتزعة عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحليته بذكر الله» [المنقذ من الضلال، ص 170]. وخلص بعد تأمل وخلوة ونظر فكري إلى أن «الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق» ويفهم من ذلك ما كان لتجربته الذاتية من أثر في تغيير فكره وسلوكه، سعياً للوصول إلى اليقين، وقد دفعه ذلك إلى الاعتكاف والاعتزال والتعبد طلباً للحقيقة، حتى ألهمه النور الباطني الحقيقة، فأنكر التقليد، وانتقد الجمود، وآمن بالعقل المستنير بالشرع.

2. قواعد التصوف عند الغزالي:

التصوف السني عند الغزالي مؤسس على جملة من القواعد، وقد بيّن ذلك بقوله «إن بيان كيفية طريقنا، وبرهان أهل تحقيقنا، مبني على عشرة قواعد توقظ النائم وتقيم القاعد:

القاعدة الأولى: النية الصادقة الواقعة من غير التواء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «وإنما لكل امرئ ما نوى». [صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ].

القاعدة الثانية: العمل لله من غير شريك، لقوله عليه السلام: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان].

القاعدة الثالثة: موافقة الحق بالاتفاق والوفاق، ومخالفة النفس بالصبر على الفراق والمشاق.

القاعدة الرابعة: العمل بالاتباع لا الابتداع؛ لئلا يكون صاحب هوى، ولا يزهو برأيه زهواً.

القاعدة الخامسة: الهمة العليا عن تسويف يفسدك؛ فقد جاء: لا تترك عمل يومك للغد.

القاعدة السادسة: العجز والذلة؛ لا بمعنى الكسل في الطاعات وترك الاجتهاد، بل عجزك عن كل فعل إلا بقدره الحق الجواد، وأن ترى الخلق بعين التوقير والاحترام.

القاعدة السابعة: الخوف والرجاء، وعدم الاطمئنان بجلال الإحسان إلا عند العيان.

القاعدة الثامنة: دوام الورد إما في حق الحق أو حق العباد، فإن من ليس له ورد فماله من الموارد إمداد، فإن النفس تنبسط بذلك جهراً وسراً، وتراعي حقوق العباد كما يتوقع منهم خيراً وشراً.

القاعدة التاسعة: المداومة على المراقبة، ولا يغيب عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين؛ فمن داوم على مراقبة قلبه لله سبحانه وتعالى ونفى غير الله وجد الله وإحسانه.

القاعدة العاشرة: علم ما يجب الاشتغال به ظاهراً وباطناً؛ لأن من ظن أنه استغنى عن الطاعة فهو مفلس لقوله سبحانه ﴿فَلْيَايُكُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].
[مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ص 431]

خامساً: تفنن الإمام الغزالي في العلوم

ظهرت أمارات نبوغ الإمام الغزالي في العلوم في وقت مبكر من حياته، فتمكن من مختلف الفنون؛ حيث «برع في المذهب، والأصول، والخلاف، والجدل، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم، وتصدى للرد عليهم، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني، حتى قيل: إنه ألف «المنحول» فرآه أبو المعالي، فقال: دفتني وأنا حي، فهلا صبرت الآن، كتابك غطى على كتابي. وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث، ومجالسة أهله، ومطالعة «الصحيحين» ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام» [سير أعلام النبلاء، 19/332-335 بتصرف].

سادساً: آثاره العلمية

جمع الإمام الغزالي بين: التربية، والتعليم، والتأليف، وخلف من بعده علماً يُنتفع به، وذكر أن «له نحو مئتي مصنف» [الأعلام، للزركلي، 7/22]. في فنون وعلوم شتى، ومنها: «إحياء علوم الدين» و«تهافت الفلاسفة» و«الاقتصاد في الاعتقاد» و«المنقذ من الضلال» و«بداية الهداية» و«جواهر القرآن» و«إلجام العوام عن علم الكلام» و«الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة» و«المستقصى من علم الأصول» و«ميزان العمل» و«المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» و«منهاج العابدين»، وغيرها كثير. وترجمت كتبه إلى عدة لغات، واستفادت منها مختلف الحضارات.

ومن تلاميذه: الإمام أبو بكر بن العربي، والشيخ عبد القادر الجيلاني.

وفاته: ظلَّ الإمام الغزالي «يجول في البلدان ويزور المشاهد ويطوف على التراب والمساجد...، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار...، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ وتكلم على لسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الإحياء...، ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة وكلَّ قلبه معلق بما فتح عليه من الطريق، ثم رجع إلى مدينة



طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء و«خانقاه» للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى، وكانت وفاته قدس الله روحه بطوس يوم الإثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة» [طبقات الشافعية الكبرى، 6/197-198 بتصرف].

التقويم

1. أبين سبب إقبال الغزالي على طلب العلم، ودواعي رحلته.
2. أذكر المراحل الفكرية التي مر بها الإمام الغزالي.
3. أصنف في خطاطة قواعد التصوف عند الإمام الغزالي.

الاستثمار

قال الإمام الغزالي متحدثاً عن جوانب من حالته ورحلته العلمية «ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أنني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جلد الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل! فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟...» [المنقذ من الضلال، 1/173].

أتأمل النص، وأستخلص منه أثر محاسبة النفس في تحقيق النجاح الدنيوي والأخروي.

الإعداد القبلي

أبحث عن ترجمة الشيخ أحمد زروق، وأستخرج قاعدتين من كتابه «قواعد التصوف».